

## الحياة الأدبية في إسبانيا المسلمة في ظل ملوك الطوائف (412 صفحة - بالفرنسية) (\*)

تأليف : عفيف بن عبد السلام

نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق

تقديم : مبروك المناعي

مع مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أخذت القلاقل السياسية والاضطرابات تتشب وتنتشر في جميع مناطق الأندلس وتزداد مع الأيام عنفا. ودامت هذه الأزمة السياسية الخطيرة المعروفة "بالفتنة" حوالي عشرين سنة وأفضت في النهاية إلى انقراض الخلافة الأموية التي نشأت في قرطبة في أوائل القرن الرابع الهجري وإلى انقسام البلاد إلى دويلات صغيرة مستقل بعضها عن بعض.

ومما يلفت الانتباه أنّ تلك الاضطرابات السياسية ساعدت على نشوء حركة ثقافية وفكرية وتنافس قلّ نظيرهما فأقبل الناس على الكتابة والشعر وازدهر الإنتاج الأدبي والفكري في شتى المجالات، فطرق الأندلسيون في مؤلفاتهم وأشعارهم جميع الأغراض والفنون ولكنهم أولوا الطبيعة والملذات أهمية خاصة.

---

\*) La vie littéraire dans l'Espagne musulmane sous les Muluks AL-Tawaif (V<sup>e</sup>/XI<sup>e</sup> siècle)

هذا هو الإطار التاريخي الثقافي العام الذي وضع في نطاقه عفيف بن عبد السلام، الأستاذ والباحث بمعهد اللغات الشرقية بباريس، بحثه القيم في موضوع "الحياة الأدبية في إسبانيا المسلمة في ظل ملوك الطوائف". وقد توزع البحث، بعد المقدمة وتحليل المصادر وعرض المدونة المدروسة، على ثلاثة أقسام خصص أولها لوضع إطار تاريخي للدراسة واهتم بأثر حكم أواخر الأمويين والعامريين في نشوء عصر الطوائف وبالقلاقل السابقة لسقوط الخلافة الأموية بالأندلس وبنشوء إمارات ملوك الطوائف، وفصل القسم الثاني القول في أبرز إمارات عصر الطوائف وخاصة إمارات الجزيرة والمرية وقرطبة ودانية وغرناطة ومالقة ومرسية وسرقسطة وإشبيلية وطليطلة وبنفسية مركزا اهتمامه على عناصر الثقافة والأدب، ثم انصرفت عنايته في القسم الثالث وهو غاية البحث ومطلبه الأقصى، إلى دراسة الحياة الأدبية في تنوعها وثنائها وسماتها البارزة فانطلق من رصد حصيلة التعريب وانتشار التعليم بالجزيرة ثم من دراسة علاقات الأندلس بالمغرب والمشرق في المجال الثقافي عامة والأدبي خاصة كي يحلل مظاهر الإنتاج الأدبي في عصر الطوائف، شعرا ونثرا، في ثرائها وتنوعها مواضيع وأساليب. ثم ختم بحثه بخاتمة تأليفية وقائمة ثرية بالمصادر والمراجع وفهرس للأعلام والأقوام والمواضع والبلدان.

والذي يستفاد من هذا البحث الجامعي المتأنّي الطويل النفس أنّ ملوك الطوائف عمدوا، بغية التمايز عن حكم الأمويين بقرطبة والدفاع عن شرعيتهم - وقد كانت محل شكّ وطعن - وبغية دعم نفوذهم وبسطه، إلى الاقتراب من أعداء بني أمية وهم العباسيون ببغداد والفاطميون بالقاهرة وإلى التشبه بهم في زينة الملك ولاسيما في مواقفهم من الأدب والأدباء حتّى أصبح "النموذج المشرقي" على حدّ قول المؤلف أظهر في هذا العصر منه في جميع عصور الأندلس.

وقد دعم هذا الالتفات نحو المشرق تخوّف ملوك الطوائف من بوادر حروب الاسترداد التي بدأت تبرز على إثر تمزق الخلافة الأموية بالأندلس وسلوكهم الحذر إزاء الخطر المسيحي المحدث. وكان من نتائج هذا التخوّف أن تراجع الموشح والزجل - وهما أبرز مظاهر التواصل الشعري بين الثقافتين الشرقيّة والغربيّة في الأندلس - وشهد القصيد صحوّة كبرى وأضحى الشعراء أكثر حرصا على أصالة الشعر وعروبتة. وكان لمقامات بديع الزمان الهمذاني أثر بارز في النثر الأندلسي بل في

النثر والشعر معا فصارت مظاهر الصنعة من أبرز سمات الأدب الأندلسي في هذا العصر. وكان من آثار تعدّد البلاطات وتنافس الأمراء على الأدباء أن نشطت حركة الأدب كثيرا وانطبع بخصائص حياة البلاط ومطالب الأمراء وعاش بالجوائز والهبات وخدم مصالح رعاته وعبر عن أذواقهم، وأضحى المتنبي، لتشابه الظروف، قدوة ومثلا فنياً أعلى، شهد شعره أوسع انتشار له وشهرة في الأندلس، وحرص الشعر الأندلسي في هذا العصر على الوفاء للسنة العربية في الشعر ما عدا تفاصيل وجزئيات تتكفل بطرافته وتتجسّم في ما سمّاه المؤلف "اللون المحلي" ورأى أنّه أمر جزئي إذا ما قيس بعروبة الشعر الأندلسي عصرئذ.

وإنّ جدّة رأي المؤلف في هذا الشأن تتمثل في أنّ أدباء الأندلس في عصر الطوائف لم يطرحوا على أنفسهم مسألة الطرافة بقدر ما كان همّهم أن يضاهوا عرب المشرق وأن ينافسوهم، وهو أمر شاركهم فيه أدباء المغرب الذين انتقلوا إلى الأندلس هروبا من زحف الهلاليين وابتغاء للحظوة وذلك لأنّهم كانوا إذّاك عرب هامش وأطراف وكان يهّمهم أن يكونوا جبهة صمود وحفاظ على هوية الإبداع الأصلية وأن يمثلوها خير تمثيل وأكثره وفاء لأصولها.

ولكنّ هذا التعلّق الشديد بالسنن لم يؤدّ حتما إلى تقليد باهت لأصول الشعر العربي القديم فقد تمكن الأندلسيون في القرن الخامس الهجري، بفضل غزارة إنتاجهم وقيمتهم الفنية، من إقامة الدليل على أنّهم لم يكونوا أقلّ قدرة من المشاركة، وأسهموا في إثراء التراث العربي المشترك بأثار من طراز رفيع برهنت على أنّ عصر ملوك الطوائف كان أبرز عصور ازدهار الأدب والفكر في الأندلس، فهو عصر ابن زيدون والمعتمد بن عبّاد وابن درّاج القسطلي وابن حمديس وابن خفاجة وابن حيّان وابن شهيد وابن عبد البرّ وابن الدبّاغ وابن سيده وابن السيد البطلبيوسي والبكري والأعلم الشنتمري وابن اللبّانة وغيرهم ...

إنّ ما في بحث الأستاذ عفيف بن عبد السلام من وضوح الرؤية وصرامة المنهج ودقة التحليل ورشاقة التاليف والاستنتاج يجعله بحثا مفيدا في بابهِ عميم النفع لا في دراسة خصائص الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري فحسب، بل في معرفة خصائص هذا الأدب ومظاهر إنشائيّته بوجه عام.

تقديم : مبروك المناعي